الثقافة للجماهير

النضال على جبهة الثقافة والفكر

١٠

من محاضرات الشيخ حسن الصفار

(١)

النضال على جبهة الثقافة والفكر

الطبعة الاولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ
وَيَخْشَوْنَهُ
وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا)

صدق الله العلي العظيم
سورة الاحزاب – ٣٩ –

سلسلة محاضرات القاها المؤلف .. ولأهميتها قام بعض الشباب المؤمنين بكتابتها .. ولما تحتويه هذه المحاضرات من فكر اسلامي اصيل وثقافة رسالية نقدمها لجماهير الامة على حلقات ... والله ولي التوفيق .

دار الجزيرة للنشر

■ لقد دخلت الحركة الاسلامية في هذه الفترة مراحل جديدة ومتقدمة من الصراع والنضال ضد الطغاة واسيادهم المستعمرين.

واستطاعت في بعض مناطق العالم الاسلامي ان تحقق مكاسب وانتصارات عسكرية وسياسية واعلامية. ومع انشغال الحركة الاسلامية بهذه الاهتمامات الجهادية المتقدمة هل هناك ثمة داع للتركيز التأميد على الجانب الفكري والثقافي؟ ام يجب ان تعتبر الحركة نفسها متجاوزة لهذا الجانب منتهية منه لتتفرغ وتصب كل اهتماماتها على الجبهات

الملتهبة في معركة التغيير والثورة كالجبهة العسكرية والسياسية الاعلامية؟

يبدو ان بعض فصائل الحركة الاسلامية يؤمن بهذا الرأي ويعتقد بان المرحلة تقتضي تركيز الجهود في هذه المجالات المتقدمة العسكرية والسياسية والاعلامية اما مجال الثقافة والفكر فقد اشبعته المرحلة الماضية فلنكتف بالرصيد المتوفرمنه.

بل ان بعض المجاهدين يعتبر الانشغال بالثقافة والفكر في هذه الفترة نوعا من الفرار من الزحف والهروب من الجبهات الامامية للمعركة.

بينما يبدولي ان الامر على العكس من ذلك تماما.. وذلك لأسباب عديدة من اهمها الاسباب التالية:

خط التراجع والانحراف

اولا: يرافق هذا التقدم الذي حققته الحركة الاسلامية اقبال جماهيرى واسع على الاسلام والتفاف كبير حول الحركة من قبل ابناء الامة، ولكن هذا الاقبال

يجب ان يعني بخلفية ثقافية ومضمون فكري ليكون قابلا للاستمرار والنمو التوسع.. اما اذا بقي هذا الاقبال معتمدا على الاندفاع العاطفي وردود الفعل النفسية على الواقع المعاش.. فانه يكون مهدداً اما بالانسحاب والتقلص او على الاقل بالوقوف عند مستوى وحد معين دون الارتفاع الى مستوى متطلبات تطور الصراع.. واما ان يكون مهداد بالانحراف حينما تستغل الفئات المنحرفة فكر با هذا الفراغ وتبدأ نشاطا محموما لبث سمومها واضاليلها..

و اما منا شاهد حي على هذا الامر، هو ما حدث في ايران الثورة، فقد وفرت الثورة الاسلامية للشعب اجواء الحرية وادكدت لديه الثقة بداته ولكن لكثرة المشاكل والمهام التي اصبحت ملقاة على كاهل قيادات الثورة فانهم لم يستطيعوا توفير الثقافة الفكر الكافي لاحتواء كل ابناء هذا الشعب الكبير الذي يصل عدد نفوسه الى «٣٦» مليون نسمة في بلد واسع مترامي الاطراف.. فكانت الفرصة ثمينة للحركات التحريفية المشبوهة مثل «مجاهدين خلق» الذين يطلق عليهم

«منافقين خلق» و «فدائين خلق»والمنظمات القومية وماشابه حيث اقتطعت هذه المنظمات اجزاء من ابناء هذا الشعب واستخدمته سلاحا لعرقلة مسيرة الثورة وتنفيذ مخططات الاعداء.

اذا كان ذلک قد حدث في بلد انتصرت فيه الحركة الاسلامية وتربعت على سدة السلطة والحكم فما بالک بوضع الشعوب التي لاتزال تعيش مرحلة النضال والمقاومة؟

ان خطر الانحراف والتحريف في مسيرة الجماهير وارد ومحتمل مالم يواجهه جهاد فكري وثقافي يجعل الجماهير على بصيرة من امرها.

الهجوم الثقافي المعادي

ثانيا: ضمن الاستعدادت الرهيبة التي اخذها الاعداء في هذه الفترة لمواجهة قوة الحركة الاسلامية وخطر توسعها هو تكثيف الهجوم الفكري والثقافي على جماهير الامة.. وتبدو مظاهر الهجوم المكثف في زيادة البرامج وساعات البث الاذاعية الموجهة نحو

المناطق والشعوب الاسلامية.. وفي اصدار مجموعة جديدة من المجلات والجرائد المعبئة بالثقافة المشبوهة وان كان بعض هذه المجلات ترتدي برداء الاسلام وتحمل صبغة دينية.. وكذلك انتشار موضة افلام «الفديو» التي غزت كل بيت.. وهناك ايضا سيل من الكتب الفكرية والثقافية الجديدة او المعادة الطبع في مختلف الجوانب والمجالات وملاحظة سريعة لقوائم مطبوعات دور النشر في بعض البلدان العربية كالقاهرة وبيروت للعام المنصرم تثبت هذه الحقيقة.

وثمة اتجاه اخر خطير لمؤامرات الاعداء في هذا المجال هودعم الحركات المشبوهة والتحريفية داخل صفوف المسلمين.. كالتحركات الطائفية والتحريفية وكمثال على ذلك حركة (الاخوان الجمهوريون) في السودان والذين صعدوا نشاطهم فجأة واصبحت كتبهم تجدد طبعاتها مرات في السنة الواحدة.

فهل يصح للحركة الاسلامية الواعية ان تقف مكتوفة الايدي تتفرج على هذا الهجوم الكبير الواسع الذي يشنه الاعداء على الجبهة الثقافية؟ ام هل يجوز

لهـا ان تـترك الجماهير فـريسة الثقـافة المشبوهة والمنحرفة؟

منطقة الفراغ الثقافي

ثالثا: مع تقدم مستوى الجهاد وانفتاح افاق جديدة امـام الحـركة الاسلامـية للعمل والنشاط تصبح هناك قضايا جديدة ومشاكل مستحدثة واسئلة مطروحة على الساحة لابد من التصدي لها بالمعالجة ووضع الاجـوبة والحلول.

رابعا: وايضا فان مالدينا من فكر وثـقافة يـدور في غالبه حول الجـوانب الثابـتة مـن الاسلام كـالعقائد والعبادات او يكون على شكل اطروحات كلية وعامة.. ولكننا وقد اقتربنا من تـطبيق الاسلام في مـجال العمل للاسلام والعمل بالاسلام فاننا بحاجة ماسة الى بـحوث ودراسات تـفصيلية مـحددة وواضحـة.. وهذه مـنطقة فراغ خـطيرة في الثقـافة الاسلامـية المطروحـة على الساحة.

وفي هذا الصدد يقول العلامة المدرسي:

«وليس من الصحيح طرح النظريات العامة التي تسبح في فراغ كأنها كليات «ابو البقاء»!

اذان طرح النظريات هكذا ومن دون تحويلها الى برامج عملية لابدان يتم لواحد من عاملين:

١ ــ فاما لان النظرية ذاتها غير واقعية وتشبه نظريات (المدينة الفاضلة) للفارابي في انها تصلح ان تكون امنيات حلوة ولكن لا تصلح ان تصبح خططا للعمل وانظمة للتطبيق.

٢ ــ واما لان صاحب تلك النظريات لايعرف كيف يجب ان تنفذ على متغيرات الحياة.

ويبدو ان اكثر الكتابات الدينية العامة هي من النوع الثاني واذا كان صاحب النظرية والمفروض فيه ان يكون اختصاصيا في امرها لايعرف طريقة تنفيذها اذا فكيف ينتظر من الناس العاديين ان يعرفوها ولكن السؤال: هل نحن طورنا ــ حسب مسؤليتنا الدينية ــ الاحكام وفق متغيرات العصر؟

ام تمسكنا بالجانب الثابت من الشريعة وضخمناها

الى ابعد حد ممكن واعدنا صياغته من جيل الى جيل..
اما المتغيرات فتر كناها لاجتهادات الناس؟

ماهو الاقتصاد الاسلامي؟ وكيف ينبغي ان يتم توزيع الثروة؟ كيف يجب ان ننمي ثروتنا القومية؟ ماهي القوانين التي تنظم علاقة العامل برب العمل؟ وهل يجب ان يشارك العمال في الارباح؟ وكم ولماذا؟ وهل للعمال ضمان اجتماعي؟

وما هو حكم الدين في الاراضي فهل يجوز تقسيمها على الفلاحين اذا قتضت الضرورة القصوى لاستقلال بلادنا الاقتصادي.. ومتى تكون حالة الضرورة.. وهل نحن الان في تلك الحالة؟

ماهي انظمة الامر بالمعروف والنهيَ عن المنكر.. ماهي الوسائل السليمة التي يجب اتباعها اليوم.. هل يجوز الاصلاح السياسي المسلح.. ام يجب ان يكون مجرد عمل صامت.. ام عصيان مدني؟

كيف يجب ان يبني المجتمع.. وكيف نوجد فيه الديناميكية.. كيف نجعله مجتمعا متقدما.. كيف نحافظ على القيم التي تسود عليه؟

ماهي تفاصيل البرنامج الاخلاقي التي يجب ان يتقيدبه الانسان المؤمن.. هل هي المرونة او التصلب. ومنى المرونة ومتى التصلب وهل هي الانعزال ام الانفتاح.. ومتى هذا ومتى ذاك؟

ان مئات الاسئلة العريضة حائرة اليوم وتتطلب اجوبة صحيحة وواقعية وواضحة. فأني لنا بذلك؟

لولم تصبح القضايا اليومية الملحة هي محور الدراسة. ولم نعالجها بشجاعة وحكمة. والتضحية بكثير من التقاليد التي اصبحت عندنا ديننا ومعنا مقدسات. فان عقابنا سيكون عسيرا امام الله والتاريخ».

(٢)
المثقفون والجماهير

■ « اللهم صل على محمد و آله ولاترفعني في الناس درجة الاّحططتني عند نفسي مثلها ولاتحدث لي عزاً ظاهراً الااحدثت لي ذلة باطنة بقدرها»

دعاء مكارم الاخلاق / الصحيفة السجادية

لكل عمل أو وظيفة يمارسها الانسان في حياته المادية والاجتماعية آفات وإنعكاسات على نفسه وسلوكه فالقصاب الذى يمارس عمل ذبح الحيوانات و سلخها قدتتصلب مشاعره و عواطفه.. والطبيب والممرض بطبيعة معايشتهما الدائمة لحالات الضعف البشري من المرضىٰ والمصابين يقل تأثرهما و عطفهما

على تلك الحالات مقارنة بغيرهما.

إذاصح هذا الكلام فالسؤال المطروح أمامنا الان هو: ماهي الانعكاسات التي يتركها التوجه الفكريَ والثقافي على شخصية الانسان المفكرو المثقف؟

مشكلة المثقفين

ولكن قبل الاجابة على هذا السؤال هناك تساؤل أخرهو: لماذا نطرح هذا السؤال؟

والجواب: ان هناك هوة واضحة و مسافة واسعة تفصل بين المفكرين والمثقفين في بلادنا و بين الجماهير المستضعفة المحرومة.

واذا كان لهذا الانفصال مايبرره بالنسبة للمثقفين المغتربين الذين تبرأوا من انتمائهم لامتهم، وانبهروا بتقدم الامم الاخرى، فتخلوا عن شخصياتهم وتقمصوا شخصيات الآخرين..

وبدل ان يأخذوا بايدى شعوبهم للالتحاق بركب الحضارة والتقدم انفصلوا عن شعوبهم والتحقوا بالاخرين كاذيال و متطفلين.

اذا كان هذا هو مبرر إنفصال اولئك المثقفين المغتربين فهل ثمة مايبرر إبتعاد و إنعزال المثقفين الذين يحافظون على انتمائهم لامتهم و مبادئهم الدينية الحقة؟

ان جماهير امتنا في هذه المرحلة تتهيأ لخوض المعركة الحاسمة ضد التخلف و الاستعمار فلابدوان يلعب المفكرون والمثقفون دورهم الخطير في توجيه جماهير الامة و مساعدتها على مواجهة المشاكل والعقبات..

بيدان هناك مشكلة ذاتية تكمن في طبيعة الانعكاسات التي قديفرزها توجه الانسان الفكري والثقافي في شخصيته..

فكما ان للتوجهات والوظائف الاخرى التي يمارسها الانسان تأثيرات معينة على نفسيته وسلوكه فكذلك يبدو ان للثقافة والفكر إنعكاس معين على شخصية الانسان المفكر..

وحديثنا الان هو عن واحد من أهم تلك التأثيرات والانعكاسات التي قدتنشأ وتحصل في شخصية

الانسان المتخصص في مجال الثقافة والفكر.. ذلك هو مشكلة الاستعلاء على عامة الناس..

مظاهر الاستعلاء

وحينما نقول ان حالة الاستعلاء على الناس إنعكاس طبيعي لتوجه الانسان العلمي والثقافي فاننا لانعني بذلك حتمية هذه السلبية في حياة العالم والمثقف ولزوم وجودها.. و انما نقصد وجود الارضية المناسبة والاجواء المهيئة في نفسية المثقف لنموهذه الحالة والتي يمكن التغلب عليها و تجاوزها بشيء من الانتباه والتصميم لدى الانسان المثقف.

وللاستعلاء مظاهر متنوعة في شخصيات المثقفين من ابرزها المظاهر التالية:

اولا: الاحساس الدائم بالعلو والارتفاع

الانسان الذي يتفرغ للعلم، و يتوجه للثقافة والفكر، من الطبيعي ان يمتلك مستوى ارفع من

الاخرين في هذا المجال، فيكون فهمه و ادراكه و اطلاعه اكثر من الافراد العاديين..

ولكن ذلك لايعني بان يسمح العالم او المثقف لنفسه بان يعيش احساسا دائما بالعلو و الارتفاع على سائر الناس وان يتجاهل قيمة الاخرين ويستهين بهم لالشيء الآلإنه متقدم عليهم في الثقافة والعلم!! بل عليه ان يجعل نصب عينيه الحقائق التالية:

اوّلا: صحيح ان العلم والثقافة قيمة كبيرة في المجتمع ولكنهاليست القيمة الوحيدة التي تعطي للانسان العلو والفضل.. فهناك قيمة الايمان والقرب من الله سبحانه تعالى..

وهناك قيمة العمل الصالح و خدمة المجتمع.. و هناك قيمة الفضائل النفسية و مكارم الاخلاق.. وليس من الصحيح ان يستهين المثقف و العالم بقيمة ومكانة سائر افراد المجتمع و خاصة المتمسكين باهذاب القيم الاخرى الفاضلة.

وقدتكون درجة التزام الاخرين بالقيم العليا التي سلكوا طريقها اكثر من درجة التزامه هو بقيمة العلم

والثقافة فانت عالم مثلا و الاخر عامل، وكل من العلم والعمل بقيمة يرتفع بهاصاحبها ولكن إذاكان إهتمام العامل و إخلاصة في عمله أعلى درجة من مستوى إهتمامك و إخلاصك في علمك وثقافتك، فان رتبة ذلك العامل في الفضل أكبرلدىٰ العقل والعرف..

ثانياً: ان افراد المجتمع يمتلكون الكثير من التجارب والخبرات الحياتية المهمة.. ولاغنى للعالم والمثقف عن الاستفادة من تجارب الناس و خبراتهم.. و إذا ما تلاقح العلم والفكر مع تجارب الحياة و خبراتها المتوارثة والصحيحة فان الحصيلة ستكون معرفة ناضجة وأراء سديدة.

وكم يستفيد الانسان المفكر حينما يعيش في أوساط الناس محاولاً الاستفادة من خبراتهم و تجاربهم و محفوظاتهم من قصص التاريخ و أحداث الماضي.

ثالثاً: هذا الاحساس الدائم بالتفوق على الاخرين قديتضخم ويتحول الى عقدة غرور أوتكبر.. والغرور والتكبر ينشأن في نفس الانسان الذي يمتلك تفوقاً في مجال ماويتضخم لديه الاحساس بذلك التفوق من هنا

نجد الامام زين العابدين علي بن الحسين «عليه‌السلام» في دعائه الرائع دعاء مكارم الاخلاق يطلب من الله سبحانه و تعالى ان يقرن اي تفوق أوتقدم يناله بانخفاض فى درجة إحساسه النفسي بذلک التفوق و ان تتعادل نسبة التفوق مع نسبة انخفاض الاحساس به داخل النفس.

تأملوا كلامه «عليه السلام»: اللهم ولاتر فعني في الناس درجة الاّحططتني عند نفسي مثلها، ولاتحدث لي عزاً ظاهراً الاّ احدثت لي ذلة باطنة بقدرها».

ويقول العلامة المجلسي رحمة الله عليه:

«ثم اعلم انه لايتكبر الاّمن استعظم نفسه، ولايستعظمها الاّوهو يعتقد لهاصفة من صفات الكمال، و مجامع ذلک يرجع الى كمال ديني ودنيوي.. والديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة و المال و كثرة الانصار فهذه سبعة.

الاول: العلم و ما أسرع الكبرالى العلماء، و لذلک قال النبي صلى الله عليه و أله و صحبه: آفة العلم الخيلاء فهو يتعزز بعز العلم، ويستعظم نفسه،

ويستحقر الناس، وينظر اليهم نظره الى البهائم، ويتوقع منهم الاكرام والابتداء بالسلام، ويستخدمهم ولايعتني بشأنهم (البحار مجلد ٧٣ ص ١٩٦) و هناك مجموعة كبيرة من الاحاديث والنصوص الشرعية تحذر الانسان حتى عن مجرد الشعور و الاحساس بالافضلية على الاخرين.

فعن الامام جعفر الصادق عليه السلام: «و من ذهب (اي من اعتقد) ان له على الاخر فضلا فهو من المستكبرين، فقلت: انما يرى ان له عليه فضلا بالعافية إذا رأه مرتكباً للمعاصي، فقال: هيهات هيهات فلعله ان يكون غفرله ما أتى و أنت موقوف محاسب، أما تلوت قصة سحرة موسى (ع)'؟

ثانياً: الرغبة عن الناس

للعلم لذة قوية الجذب، وفي الثقافة أغراء كبير و إذاما إستساغ انسان لذة العلم، أو إستولى إغراء الثقافة والفكر على قلبه.. فانه ينصرف نحو العلم والثقافة إنصرافاً كاملاً.

ويصبح الاجتماع مع الناس و الالتقاء بهم نوع من من إضاعة الوقت!!

ولذا تكون قراءة كتاب أوحضور درس أو كتابة موضوع أو التحقيق في مسألة علمية أوفكرية أفضل و أولى عند عشاق العلم و هواة الثقافة و الفكر من الجلوس مع الناس أو الحضور في تجمعاتهم، و صرف الوقت في التحدث اليهم..

وهذا أحدهم يعبر عن مدى تعلقه بالعلم فيقول:

سهري بتحقيق العلوم الذلي
من وصل غانية بحبل عناق
وتلذذي طرباً بحل عويصة
اشهى وأحلى من مدامة ساقي

ولكن هؤلاء تفوتهم قضية أساسية مهمة وهي: هدفية العلم والثقافة والمسئولية المترتبة عليهما. فلماذا العلم والثقافة في منطق الاسلام؟

هل العلم للعلم والثقافة للثقافة والفكر للفكر؟

كلا.

ففي منطق الاسلام يكون العلم للعمل والتعليم

والثقافة للاصلاح والتوجيه.

يقول تعالى:

«فلولانفرمن كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون» اذن فالتفقه في الدين هو من أجل إنذار الاخرين و توجيههم. ويقول الامام علي (عليه السلام): «ان الله لم يأخذ على الجهال عهداً بطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهداً ببذل العلم للجهال»

وعن الامام الباقر عليه السلام: «زكاة العلم أن تعلمه عباد الله».

وعن رسول الله صلى الله عليه واله: «إذا ظهرت البدع في امتي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»

وحينما يدرك المثقف المسؤولية الخطيرة التي يتحملها وانها مسئوولية دينية يطالبه الله يوم القيامة اذا هو قصرفي أدائها.. حينئذ لايسمح لنفسه بالانصراف عن الناس والرغبة عن الاجتماع بهم بل يخصص جزءاً مناسباً من وقته و إهتمامه للقيام بدور توجيه الناس و

تحمل مسؤولية بذل الوعي لهم.

ثالثا: التعامل مع طبقة خاصة

١ ــ في المجتمع طبقات مختلفة من حيث المستوى الفكري، أومن حيث العمر و من حيث الادوارو الاعمال.. و الهداية والوعي حق مشروع لكل فردمن أفراد طبقات المجتمع.

٢ ــ وحينما لايتوفر الوعي والتوجيه لأي طبقة من الطبقات في المجتمع بمختلف أقسام التصنيف فان ذلک يشكل ثغرة خطيرة في واقع المجتمع يمكن ان ينفذ منها كل شر و فساد..

ولذلک يقول أميرالمؤمنين علي ابن ابي طالب عليه‌السلام في عهده العظيم لمالک الاشتر «رضوان الله عليه» «واعلم ان الرعية طبقات لايصلح بعضها الاّ ببعض، ولاغنى ببعضها عن بعض: فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الانصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من اهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار

وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، وكل قد سمى الله له سهمه، ووضع على حده فريضة في كتابه او سنة نبيه صلى الله عليه واله وسلم عهداً منه عندنا محفوظاً».

فمثلاً: اذا ما تجاهلنا الاباء، وركزنا جهودنا على توعية الابناء فقط، فان الاباء الذين لم نوصل اليهم الوعي والتوجيه سيشكلون عقبة كأداء في طريق التزام وتحرك ابنائهم.. أليس كذلك؟

ومثال أخر أيضاً: لو كثفنا جهودنا في التوعية والتوجيه على الطلاب والجامعيين وتركنا الطبقة العاملة فانهم سيصبحون فريسة للافكار اليسارية المنحرفة.

٣ ـ لكي نواجه الواقع المتخلف ونستطيع التصدي لقوى الظلم والطغيان فاننا بحاجة الى تحريك كل طاقات الشعب وقدراته.. والفئة التي نبخل عليها بالوعي والتوجيه هل ننتظر منها الاشتراك معنا في المعركة أو الصراع؟

بالطبع: كلا

فجهلها ان لم يجعلها تتخذ موقفاً مضاداً لنافانها على الاقل ستتخذ موقفاً سلبياً محايداً، وبذلك نخسر جزءاً من قوتنا الشعبية، كان يمكن ان تسهم معنا في معركة التحرر والاستقلال والتقدم.

إنطلاقاً من هذه الحقائق لايصح للمثقف الملتزم والمفكر المسؤول أن يجعل دائرة علاقاته وتأثيره محدودة في طبقة معينة من الناس ودون الاستعداد للانفتاح والتوجيه لسائر الفئات والطبقات.

وأمامنا الان تجربة تاريخية حية، أدهشت العالم أو حيرت كل مفكريه وسياسيه.. انها تجربة الثورة الاسلامية الظافرة في ايران.. هذه الثورة الشعبية التي شاركت فيها كل فئات الشعب وطبقاته.

فلم تكن إنقلاباً عسكرياً يصنعه العسكريون.. ولا حركة سياسية قام بها رجال السياسة.. ولا إنتفاضة محدودة أنجزتها طبقة خاصة من الشعب.. كانت حركة شعبية وثورة جماهيرية بكل ما للكلمة من معنى.

وقد شاهد الناس من على شاشات التلفزيون في مختلف أنحاء العالم شاهدوا رجل الدين الطاعن في

السن الى جانب العامل الكادح الى جانب الطالب الجامعي الى جانب الفلاح القروي الى جانب المرأة التي تحمل طفلها.. كلهم كانوا جنباً الى جنب يهتفون بسقوط الطاغوت وينادون بقيام حكومة الحرية والاستقلال.. الحكومة الاسلامية وتحقق لهم ما ارادوا بعون الله وتوفيقه.

وما كان ذلك ليحدث في ايران لولا إنفتاح رجال الفكر الاسلامي على جميع طبقات الشعب.. ولولا وصول الوعي والتوجيه الى كل المستويات والفئات.

ولنتأمل الاحاديث والنصوص التالية لنرى كيف كان أئمتنا وقادتنا يتعاملون مع جميع الناس بمختلف مستوياتهم، ويعيشون في اوساطهم.

١ ــ عن عبدالله بن الصلت، عن رجل من اهل بلخ، قال: كنت مع الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام في سفرة الى خراسان، فدعا يوماً بمائدة له، فجمع عليها مواليه من السودان و غيرهم فقلت: جعلت فداك: لو عزلت لهؤلاء مائدة؟ فقال: «ان الرب ــ تبارك و تعالى ــ واحد، والام واحدة، والاب واحد، والجزاء

بالاعمال»

٢ ــ في الطريق و معه جماعة من اصحابه مرّ الامام الرضا عليه السلام على رجل من اهل السواد (اي الزراعة) ذميم المنظر فتوقف الامام وسلم عليه ونزل عنده و حادثه ثم عرض عليه استعداده لقضاء حوائجه.

٣ ــ الامام الحسن بن علي عليه‌السلام يمشي في طريقه فيرى مجموعة من المساكين يفترشون الارض و يأكلون كسراً من الخبز اليابس.. فيسلم عليهم فيدعونه للمشاركة في الطعام.. ويستجيب الامام لدعوتهم ويأكل معهم ممايأكلون ثم يدعوهم الى داره قائلا: اجبت دعوتكم فاجيبوا دعوتي.

وأخيراً: فان المثقف حينما يعيش في وسط قريب من مستواه، ويستقطب أفراداً متعلمين و شبابا منفتحين فلافخر كبير له في ذلك، لان الاجواء تساعده على التأثير في الوسط الذي إختاره.

ولكن لنتنافس في إستقطاب سائر فئات المجتمع ممن تختلف أعمارهم و مستوياتهم و أعمالهم عن أعمارنا و مستوياتنا وأعمالنا.

لنتحرك باتجاه توعية الفلاحين و العمال و كبار السن كمانتحرك فى صفوف الطلبة و الجامعيين.

رابعا: التحدث في مستوى معين

الناس تختلف مستوياتهم الفكرية، كمايتفاوت مدى استعداداتهم النفسية لتقبل مايطرح عليهم من قضايا و افكار.

بيدان بعض المثقفين يتجاهلون هذا الاختلاف و التفاوت فيصرون على التحدث مع الناس العاديين لمستوى فكري لايستوعبونه، ويطرحون لهم قضايا قد لايشعرون بأهميتها فلايتفاعلون معها.

والنتيجة ستكون يأس هذا المثقف من التأثير في الناس، ونفور الناس و إبتعادهم عنه.

بينما المفروض مراعاة مستويات الناس و تقريب الافكار الى أذهانهم وتبسيطها و الانطلاق معهم من حيث يفهمون و يدركون للارتفاع بهم الى مستوى أعلى..

فالمثقف الذي يخاطب الفلاحين مثلاً بلغة علمية فصحى مستخدماً الاصطلاحات الفكرية التي لم تطرق

أسماعهم من قبل فيتحدث لهم عن التكنولوجيات والنظرية الدارونية والبروليتاريا ـ والمافيا و ماشابه فماذا سيفهم اولئک الفلاحون البسطاء من حديثه؟

ورحم الله الشيخ محمد جواد مغنية الذي قال ساخراً هؤلاء المستخدمين للاصطلاحات العصرية أمام الناس العاديين.

افتنكر العلم الغزيروهذه
كلماته تتلى عليک مراراً
(مكروب) مكرسكوب ثم (سبنسر)
(بنجور) (مسيو) نقطف الازهارا
قد اضحک الثكلى الكئيبة نملة
أمست تحاول أن تجرقطارا!!

وكم كان الفرق كبيراً والبون شاسعا بين مستوى تفكير الانبياء المبتعثين من قبل الله و مستوى اقوامهم الجاهليين الخاضعين للاصنام والاوثان؟

ولكن الانبياء ماكانوا يتحدثون للناس حسب مستواهم كأنبياءبل كانوا يتكلمون مع الناس باللغة التى يفهمها الناس ويستوعبونها.

يقول تعالىٰ: «و ما ارسلنا من رسول الآبلسان قومه» و هذا نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام عندما أراد أن يثبت لقومه زيف أصنامهم و عبادتهم و يؤكد لهم وجود الله تعالى و وحدانيته.. لم يستعرض امامهم الادلة الفلسفية و لا الكلامية و انما خاطبهم بمايفهمون ويستوعبون وبطريقة مسرحية لتوثر في نفوسهم.. يقول تعالى مسجلاً لناذلک المشهد:

فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال: هذا ربي فلما أفل قال: لا أحب الافلين.

فلمار أى القمربازغاً قال: هذا ربي فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين.

فلما رأىٰ الشمس بازغة قال: هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال: ياقوم إني بريء مماتشركون. انبي وجهت وجهي للذي فطرالسماوات والارض حنيفا و ما انا من المشركين» الانعام ٧٥ ــ ٧٩

١ ــ وهناک حديث مشهور عن النبي محمد صلى الله عليه‌واله وصحبه وسلم يقول:

«انا امرنا معاشر الانبياء. ان نكلم الناس بقدر

عقولهم.. أمرني ربي بمداراة الناس كما امرنا باقامة القرائض».

٢ ــ وعن الامام جعفر الصادق عليه‌السلام:

«خالطو الناس بمايعرفون ودعوهم مما يفكرون»

٣ ــ وفي حديث آخر:

«ما احديحدث قوماحديثا لاتبلغه عقولهم الآكان ذلك فتنة على بعضهم».

هذا من ناحية مراعاة مستوى الفهم .. و من جهة اخرى لابد من مراعاة مستوى التقبل والاستعداد النفسي.. فكونك انت ثائر متحمس متحسس للاوضاع السيئة مندفع لتغييرها لايعني ان الاخرين يعيشون معك نفس الدرجة من التحسس و الاندفاع.. و اذاما طلبت منهم القفزمرة واحدة الى مستوى اندفاعك و تضحيتك فلن تجدمنهم سوى الاعراض والنفور، وستحصدانت ثمار اليأس والتبرم بمواقف الناس.

ان الناس العاديين قدلايعيشون إهتمامات سياسية و حينما تكون لغة المثقف منذ البداية لغة سياسية بحتة فانه لاينجح في استقطاب الناس و التأثير فيهم.

وان قسما من الناس لم تتهيأ في نفوسهم أرضية الثورة والفداء واذا ماخوطبوا بلهجة ثورية حادة فسوف لن يكون نصيب المتحدث منهم أكثر من الاتهام بالطيش والتهور.

والمطلوب من المثقفين الرساليين والثوريين ان يتفهموا ظروف الناس و مستوياتهم.

مرة ذهب أحد الخطباء الثوريين الى منطقة وخطب في اهلها بضع ليال ثم عادمتشائماً منزعجاً لان اهل تلك المنطقة رجعيون وجبناء على حدتعبيره.. ولكن الخطأ لايكمن في أهل تلك المنطقة المستضعفين الذين يعانون من وطأة قرون التخلف و أوضاع الجهل وضغط الافكار السلبية القشرية.

انما الخطأيكمن في إسلوب ذلك الخطيب الذي كان يتوقع منهم أن يصلوا الى مستوى قناعاته الثورية و إندفاعه و حماسه لانه قد خطب فيهم بضع ليال، وطرح عليهم قضايا سياسية و ثورية لم تكن نفوسهم مهيئة لهاولا مستعدة لتقبلها!!

مع ملاحظة اننالا نطلب من المثقف الهبوط الى مستوى الناس العاديين لكي يذوب في اهتماماتهم

البسيطة وانما ليكون أقدر على الارتفاع بهم الى مستواه.

وكلمة اخيرة..

ان جماهيرنا اليوم لاتحتاج لشيء ملح كحاجتها للوعي الصحيح والثقافة السليمة .. لتتسلح بذلك في معركتها ضد التخلف والغزاة الطامعين.

والمثقفون الملتزمون هم وحدهم القادرون على تلبية هذه الحاجة، وتوفير سلاح المعركة للجماهير.

فليبادر المثقفون الى الانخراط في صفوف الجماهير كل الجماهير.. ولينقذوا الناس من الافكار القشرية والرجعية وليحذروا الناس من خدع الاستعمار واضاليل الطغاة.

ونحن واثقون من قدرة جماهيرنا المسلمة على انتزاع النصر من الاعداء الطغاة ان الله ينصر من يشاءوهو العزيزالرحيم □

صدر من هذه السلسلة :

١/ مسئولية الشباب .

٢/ خطر السقوط .

٣/ المراة مسئولية وموقف .

٤/ رمضان برنامج رسالي .

٥/ رمضان وقضايا الثورة .

٦/ الجماهير والثورة .

٧/ الثورة والارهاب .

٨/ فلنحطم الاغلال .

٩/ النفس منطقة الخطر .

١٠/النضال على جبهة الثقافة والفكر (بين يديك)

من هذا الكتاب

لقد دخلت الحركة الاسلامية في هذه الفترة مراحل جديدة ومتقدمة من الصراع والنضال ضد الطغاة واسيادهم المستعمرين .

واستطاعت في بعض مناطق العالم الاسلامي، ان تحقق مكاسب وانتصارات عسكرية وسياسية واعلامية . ومع انشغال الحركة الاسلامية بهذه الاهتمامات الجهادية المتقدمة هل هناك ثمة داع للتركيز على الجانب الفكري والثقافي، ام يجب ان تعتبر الحركة نفسها متجاوزة لهذا الجانب منتهية منه لتتفرغ وتصب كل اهتماماتها على الجبهات الملتهبة في معركة التغيير والثورة كالجبهة العسكرية والسياسية والاعلامية ؟

دار الجزيرة للنشر